# عرض تاريخى

تطالعنا كتب علم النفس العام ، وبخاصة العربى منها ، بقوائم من الغرائز باعتبارها الدوافع الأساسية للسلوك .

والغريزة على حسب تعريف هذه الكتب ، هى عبارة عن استعداد فطرى لا يحتاج إلى تعلم ، يدفع الكائن الحى إلى القيام بسلوك خاص فى موقف معين . ففراخ الدجاج مثلا فى استطاعتها أن تلتقط الحب بعد انقضاء ساعات قليلة على خروجها من البيض ( غريزة البحث عن الطعام ) . والطفل عقب ولادته ، يصرخ إذا ما سمع صوتا عاليا مدويا ( غريزة الخوف )، وهكذا .

ومن بين هذه القوائم ما عرضه ( وليم جيمس[1] ) فى أواخر القرن التاسع عشر ، حيث ذكر أن هناك عند الإنسان ما يقرب من ٣٢ غريزة ، منها : —

الصيد — الصراخ — الخوف — التقليد — اللعب
التسلق — الخجل — الغيرة — الطاعة — النظام

---

(1) James , W. : The Principles of Psychology Vol. II., pp. 404 - 41 (1905)

التنافس — الشفقة — إدارة الرأس جانبا — الابتسام

الحب — النظافة

وبجانب هذه القائمة قائمة أخرى ذكرها ( ثورن ديك )[١] في عام ١٩١٣ ، حيث وضع للإنسان ما يقرب من ٤٢ غريزة . ومن بين هذه الغرائز ما يأتى :

الأكل — القبض على الأشياء — البلع — الجمع

المقاتلة — الغضب — الضحك — البكاء — الرضاعة

العض — البصق — التثاؤب — السعال — العطس

الإفراز — القيء

ويأتى بعد ذلك ( مكدوجل )[٢] وهو زعيم المدرسة التقليدية فى الغرائز ، حيث ذكر فى أحد مؤلفاته ، أن لدى الكائن الحى ١٤ غريزة يصحب استثارة كل منها إنفعال خاص وهى[٣] :

| | | |
|---|---|---|
| غريزة المقاتلة | — | إنفعالها الغضب |
| الغريزة الوالدية | — | « الحنو |

---

(1) Thorndike, E. L. : Educational Psychology Vol. II. New york, 1913.

(2) Mc Dougall, .W : An Outline of Psychology. p. 324 (1923)

(٣) اقتبست هذه القائمة من كتاب « محاضرات فى علم النفس » للدكتور العزيز القوصى . ص ١٢١ — ١٢٢ .

| | | |
|---|---|---|
| غريزة الهرب | — | انفعالها الخوف |
| غريزة حب الاستطلاع | — | » التعجب |
| غريزة البحث عن الطعام | — | » الجوع |
| غريزة النفور | — | » الاشمئزاز |
| غريزة الاستغاثة | — | » الشعور بالضعف |
| الغريزة الجنسية | — | » الشهوة الجنسية |
| غريزة الخنوع | — | » الشعور بالنقص |
| غريزة السيطرة | — | » الزهو |
| غريزة التملك | — | » حب التملك |
| غريزة الحل والتركيب | — | » حب العمل والنشاط |
| غريزة حب الاجتماع | — | » الشعور بالوحدة |
| غريزة الضحك | — | » التسلية |

وقد أضاف (مكدوجل) إلى هذه القائمة، فى كتاب حديث له، نشر فى عام ١٩٣٣ [1]، بعض الغرائز الأخرى وهى :

غريزة الراحة ، غريزة النوم ، غريزة الهجرة .

وقد لوحظ أنه بدأ فى هذا الكتاب ، الذى كتبه فى أواخر أيامه ، يستعمل كلمة ( Propensity ) بدل كلمة غريزة (Instinct) . ولعل ذلك التعديل بسبب كثرة النقد الذى وجهه علماء النفس ،

(1) Mc Dougall : The Energies of Men

وبخاصة الأمريكيون منهم ، إلى نظريته التقليدية . ولقد اشتد نقد الأمريكيين لنظرية الغرائز ، معتبرين إياها صيغا بالية لا تكفى لتفسير سلوك الإنسان .

وهناك اتجاه آخر ، وهو إرجاع جميع أفعال الإنسان إلى غريزة واحدة . ( فرويد ) [١] مثلا ، يرى أن الغريزة الجنسية هى المصدر الأساسى لنشاط الكائن الحى . فى حين أن ( أدلر ) [٢] يفسر جميع أفعال الإنسان بغريزة واحدة ، هى غريزة السيطرة (Will to power).

ويتزعم ( وطسن ) رأيا آخر يفسر سلوك الانسان بالفعل المنعكس . أى على أساس فكرة المثير ورد الفعل ، مع إنكار وجود حالة شعورية بينهما ، وذلك تفسير عصبى يجعل السلوك متوقفا على تنبيه مختلف المراكز العصبية بمؤثرات خارجية ، متجاهلين بذلك الأحوال النفسية التى تقع بين التأثير والاستجابة . ولذلك سميت مدرسته « المدرسة السلوكية » .

ويقول أصحاب المذهب الديناميكى أن السلوك يحدث فى مجال معين ، هذا المجال يعتمد على مجموعة من العوامل ، بعضها فى الكائن الحى نفسه ، و بعضها يرجع إلى المواقف الخارجية [٣]

---

(1) Freud : The Ego and the Id.

(2) Adler : Individual Psychology

(٣) انظر علم النفس التربوى للدكتور أحمد زكى صالح — ص ١١ .

أى أننا كى نقوم بسلوك ما ، لزم أن يكون وراء ذلك السلوك دافع يدفعنا لما نقوم به من نشاط وحركة . فالدافع هنا هو القوة الداخلية المحركة . وبجانب الدافع ، هنالك التكوين العضوى نفسه ، ويشمل ذلك ، الجهاز العصبى والأعضاء التى يتكون منها الجسم والحواس والغدد . . . الخ . وما تلك إلا وسائل استقبال وإرسال تتأثر بالبيئة الخارجية التى يعيش فيها الفرد والتى تحتوى على القوى والعناصر اللازمة لتحقيق الغرض الذى يكمن وراء الدافع . وهنا يظهر بجلاء أثر البيئة فى إشباع حاجات الفرد المختلفة .

وعلى ذلك فإن ما يدفعنا إلى السلوك يرجع إلى أحد أمرين : وجود حالة نقص ( احتياج ) فى الجهاز العصبى تتطلب سدها ، أو حالة ضغط ( pressure ) داخلى تتطلب التنفيس عنها . مثال ذلك ، الجوع ، فهو حالة نقص تدفعنا إلى طلب الطعام ، وعلى العكس من ذلك ، حالة الغضب ، هى ضغط داخلى يدفعنا إلى أعمال معينة كالمقاتلة تنفيسا عنه . وما النقص أو الضغط ، كلاهما يخلق نوعا من التوتر Tension وهو إما نفسى ، كما هو الحال فى الدوافع الثانوية السيكلوجية ، وإما توتر «فسيولوجى» مصحوب بعوامل نفسية ، مثل ما يحدث فى الدوافع الأولية كالجوع والميل الجنسى . ويتصل التوتر « الفسيولوجى » بالحساسية الحشوية ( معدة — أمعاء — مثانة . . الخ ) ، أو الحساسية الغددية .

وينجم عن وجود ذلك التوتر ، تهيج أو إثارة . أو بعبارة أخرى حالة من حالات عدم الاستقرار الداخلى ، الذى يتطلب تنفيسا (discharge) . إن الرغبة فى التنفيس تدفع الكائن الحىّ إلى النشاط والحركة ، ليزول ذلك النقص أو الضغط الذى سبب التوتر . وعند ما يزول النقص عن طريق إشباع الدافع ، تعود إلى الكائن الحىّ حالة الاستقرار أو التوازن التى كان عليها قبل تحقيق الهدف .

ويذهب ( البورت Allport ) (*) إلى أن الغرائز وحدها لا تكفى لتفسير السلوك الإنسانى . فكثيرا ما يكتسب المرء ميولا نتيجة احتكاكه بالبيئة فتصبح فى نفسها دوافع . والإنسان فى كل دور من أدوار النمو يكتسب عدداً من الاتجاهات والميول والعادات نتيجة ما يقوم به من نشاط فى بيئته . إن هذه التكوينات الجديدة ، يمكن أن تصير فى نفسها قوى دافعة ، فعالم النبات أو عالم الجيولوجيا مثلا ، يكتسب كل منهما من عمله الخاص ، ما يدفعه للقيام بأنواع شتى من السلوك .

ولا يمنع ذلك أن تكون تلك التكوينات الجديدة مشتقة أحيانا من الحوافز الفطرية . ويتضح ذلك من المثل الآتى :

---

(*) Allport : Personality. p, 191

هب أن شخصاً كان على ميعاد مع صديقة له ، وأنه كان في الوقت نفسه مكلفا باستذكار مادة ما ( علم النفس مثلا ) . ثم اشترط عليه أنه لن يخرج للقاء صديقته ، إلا بعد أداء ما عليه من واجبات . فإذا ما تكرر الموقف ، اصطبغت دراسة علم النفس لديه ، بعامل يجلب إلى قلبه البهجة والسرور . وقد يحدث على مدى الزمن ، أن يتحول هذا السرور ، إلى ميل أو رغبة تتصل بعلم النفس ، تطغى على الدافع الأصلى الطبيعى . ثم بالتدريج ينفصل هذا الميل عن الدافع الأصلى ويصبح فى نفسه دافعاً مستقلا ، يؤثر فى تفكير الفرد . ويكون كبير الأثر فى توجيه سلوكه . وعلى ذلك نستطيع أن نلخص رأى ( البورت ) فيما يلى :

إن الانسان كما أنه يكتسب المهارات ( الكتابة ، لعب التنس ، حلاقة الذقن . . . الخ ) عن طريق التعلم ، كذلك قد يكتسب دوافع لسلوكه عن طريق التعلم ، فما ينطبق على المهارات ، ينطبق بدوره على كثير من دوافع السلوك الإنسانى [1] .

ونخلص من عرضنا السابق إلى الأمور الآتية :

(١) إذا كان العلماء قد اختلفوا فيما بينهم على تحديد الغرائز ،

---

(1) Gordon W. Allport : Personality, A Symposium. The British Journal of Educational Psychology, June, 1946 p. 68.

فإنهم قد اتفقوا على أن هناك شيئاً فطرياً (innate) لا يحتاج للتعلم ، يفسر بعض السلوك الحيوى . أما ما هو هذا الشيء فقد اختلفوا فى تعيينه ، فعند ( فرويد ) ينحصر فى الغريزة الجنسية ، وعند ( مكدوجل ) ينحصر فى تلك القائمة التى ذكرناها آنفا ، وعند (ثورنديك) تبلغ الغرائز حوالى ٤٢ غريزة . إلى غير ذلك من التقسيمات العددية الأخرى .

(٣) وطالما كان من غير اليسير تحديد ما هو فطرى من سلوكنا ، وكانت هذه الصعوبة راجعة إلى طبيعة الإنسان نفسها ، فلا بد لنا أن ننظر دائما إلى تأثير العوامل البيئية و إلى ما تتضمنه من بواعث .

وإننا إزاء هـذا الاختلاف فى الرأى على تحديد الغرائز ، حتى بين القائلين بوجودها ، ونظراً للتناقض الذى يتصل بالتسمية ، أو للغموض الذى لابس تلك النظرية ، نفضل أن ننحو منحى آخر فى تفسير سـلوكنا ، مسترشدين فى ذلك بتقدم البحوث التجريبية فى السنوات الأخيرة ، لا فى ميدان علم النفس فحسب ، بل فى علم وظائف الأعضاء ، وعلم الأجناس البشرية والاجتماع ، وعلم النفس المرضى والطب النفسى الجسمى .

ومن أهم الأسس التى يجب أن تراعى فى دراسة مشكلة الدوافع ما يأتى :

( ١ ) فهم علم النفس على أساس ديناميكى (dynamic) ، يتجلى فيه التغير والتفاعل المستمر . إن هذا الفهم يجعلنا نهتم بالأسباب التى توجد وراء السلوك ، ولا نكتفى بالنواحى الوصفية .

إن علم النفس الديناميكى لا يحدد عدد الدوافع فى الكائن الحىّ ، كما أنه ينظر إلى بعضها على أنها ( وحدات تكوينية ملازمة ) ، لها ارتباط بحياة الفرد الماضية ، ولكنها سرعان ما تنفصم عن الماضي فتصبح مستقلة . فهى فى دور تكوينها تعتمد على خبرات الفرد وميوله واتجاهاته ، وما يمر به من أحداث . وقد تكون فى أول أمرها وليدة الصدفة ، ولكنها فى ظل هذه الملابسات تنمو تدريجيا حتى تصبح أمرا فعالا فى توجيه السلوك . ويتضح هذا فى طفل يشاهد أهله يعملون فى حديقة المنزل ، وهم بين الحين والآخر يدعونه لمشاركتهم ، فإذا ساهم معهم فى عمل من الأعمال شجعوه وامتدحوا عمله ، فتنمو فى هذا الطفل بالتدريج رغبة فى مزاولة ذلك العمل ، وقد يصل نمو تلك الرغبة إلى أن تصبح دافعا له أثره فى تحديد ميوله واتجاهاته فى المستقبل . فقد يتخذ من هذا العمل مهنة يكتسب منها ، أو يصبح على الأقل هواية ينفق فيها أوقات فراغه .

وهكذا نرى أن أمراً يكاد يتأتى عن طريق الصدفة ، يكتسب أهمية خاصة فى توجيه سلوك الفرد .

( ٢ ) إن هذا التفسير يبعدنا عن تفسير السلوك على أساس قوائم ثابتة من الغرائز ، ويفتح المجال أمام عدد من متغير من الدوافع التي يكون لخبرات الفرد أثر كبير فى تكوينها ، وإن كان بعضها يقوم على أساس فطرى ، ثم يتخذ شكلا خاصا فى ظل تلك الخبرات .

وأننا إذ نعدل فى تفسير السلوك بالغرائز ، لا ننكر وجود قوى دافعة يرثها المرء أو يكتسبها من البيئة ، ولكننا نعتبر أن سلوكا ما ، لا يتبع هذا الدافع أو ذاك — فطريا كان أم مكتسبا — ولكن يشبع الذات بأكملها . فالسلوك هو سلوك الذات بأكملها ، وليست الذات ( Ego ) مجموعة من القوى النفسية المنفصلة ، بل هى وحدة كاملة . مثال ذلك ، إن اختلجت بأنفسنا رغبة ما ، فالرغبة ليست رغبة ذلك الجزء أو ذاك ، بل هى رغبة الذات كلها . والسلوك الذى نندفع إليه ، هو سلوك الذات كلها ، بتركيبها الراهن ، وغرضه إشباع الذات ، بما فيها من ميول وعواطف ومطامح ... الخ .

( ٣ ) وهكذا تساعدنا هذه الدراسة على تفهم ميول الفرد واتجاهاته وعواطفه ، وهذه أمور يكتسبها الفرد وتكون ذات أثر كبير فى توجيه سلوكه .

( ٤ ) كذلك الاهتمام بالنواحى اللاشعورية ، له قيمته طالما

ندرس دوافع السلوك . وهذا مدعاة لدراسة العقل الباطن ومايحتويه من عقد نفسية . وفى ظل هذه الدراسة نستطيع أن ننفذ إلى أسباب بعض المظاهر النفسية المرضية ، كالمخاوف والأوهام والقلق والهستيريا ، والنيورستينيا ، والوساوس المتسلطة ، إلى غير ذلك من العلل والأسباب التى تؤدى جميعها إلى انحراف السلوك .

ولنا أن نتساءل الآن عن معنى الدافع ، وهذا ما سنجيب عليه فى الفصل الثانى .

obeikandl.com